٦ ـ الدّادية الدادائية

(Dadaism)

اتّسم القرن العشرون بالتعقيد الشديد ، وبانعدام اليقين عند الإنسان الغربيّ ، وشكه في العقائد والأديان والثوابت ، ولذلك اتسم هذا القرن بالتغير الكبير ، والتبدل السريع في الأفكار والمعتقدات ، حتى كانت المذاهب الأدبية ، والاتجاهات الفلسفية والسياسية والاجتماعية تظهر وتختفي ما بين يوم ويوم كأزياء الثياب والأثاث وغيرها .

الاتجاه إلى اللاشعور

ولكن ما ميز هذا القرنَ بقوة هو نزعة الاهتمام بـ «اللاشعور» و الاتجاه إلى العالم الداخلي للإنسان ، والنفرة من الواقعيات ، والعالم الخارجي ، وعالم الإدراك والوعي والشعور .

وقد تبلوّر هذا من قبل ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في«الرمزية» . التي ابتعدت عن الواقع ، وشكّكت قي قدرته على استكناه حقائق الأشياء ، فنحت منحى باطنياً ، ولكن الرمزية ـ مع ذلك ـ لم تنكر هذا الواقع ، ولم تُلْغه إلغاء تاماً ، بل كانت تحاول أن تستشفه استشفافاً ، وأن تلامسه ملامسة خفيفة ، ولكنها لم تجحد وجوده .

ولكنّ هذا المذهب الجديد (الدادية ـ السّريالية) أو فوق الواقعية مضى يلغي العقل الواعي إلغاء كاملاً ، وترك الأمر كله للعقل الباطن وحده .

أثر علم النفس الفرويدي

كان لأفكار سيجموند فرويد الطبيب النمساوي اليهودي الشهير ، وما تفتّقت عنه أوهامه من آراء حول النفس البشرية ، وعالم الشعور واللاشعور ، الأثرُ الكبير في عالم الأدب ، وفي ولادة مذاهب تركز على العقل الباطن ، وتعدّه وحده مصدر الإبداع الفنيّ .

كان فرويد يزعم أن النفس الإنسانية تنقسم إلى ثلاث مناطق ، هي «الأنا = Ego » .

وتمثل الوعي والإدراك والشعور ، و«الأنا العليا = Super ego » وتمثل الرقيب أو الضمير الذي يحاسب «الأنا» ويصدر إليها الأوامر والتعليمات ، ويقف لانحرافاتها بالمرصاد ، ومنطقة ثالثة تدعى الـ «هو ، أو الهي : Id » وتمثل عالم اللاشعور ، أو العقل الباطن ، أو اللاوعي[١] .

(١)انظر اليزابيث رايت ، في كتاب «النظرية الأدبية الحديثة» ص٢١٤ .

وزعم فرويد أن الفن ـ بأشكاله كافة ـ كالحلم ، يصدر عن اللاشعور ، ويعبّر عن الرغبات المكبوتة فيه ، تلك الرغبات التي لا تجد لها مجالاً للانطلاق بسبب عين الرقيب ،فتُخْتَزن في اللاشعور ، فتخرج على شكل أحلام ، وعلى شكل عمل فني .

فالإبداع الأدبي لا يصدر ـ في زعم فرويد ـ عن العقل الواعي ، وإذا ما صدر عنه كان عملاً هابطاً ، ولكنه يصدر عن العقل الباطن ، عن اللاشعور .

والفنان ـ في زعم فرويد كذلك ـ إنسان مريض نفسياً ، إنسان غير سويّ ، مصاب بمرض العُصَاب ، وهو عرضة للانهيار ، لولا إبداعه الأدبي الذي يعصمه من هذا الانهيار ، ويحفظ عليه توازنه ، لأنه يخلّصه من ضغط الرغبات المكبوتة في لاشعوره ، فإذا ما أخرجها ـ حلماً ، أو فناً ـ استراح ، ووصل إلى حالة من الاستواء النفسي ، وهكذا فالأدب عند هؤلاء القوم هو «هَتَرَات غير الأسوياء[١]» .

نشأة الدادية

نشأت الدادية إثر الحرب العالمية الأولى ، عاكسة حالة من حالات ضياع المجتمع الغربي الطالع من حرب هوجاء دمرّت الملايين من البشر ، في وقت كان تتشدّق فيه هذه الدول التي خاضت هذه الحرب الطاحنة بحرية الإنسان ، ورعاية حقوقه ، وبمبادئ الديمقراطية والعدالة والمساواة وغير ذلك من الشعارات البراقة[٢] .

وقد عرّت هذه الحرب حقيقة الإنسان الغربيّ ، وكشفت «عورته وغرائزه وتلمظه للدم والقتل وانتهاك المحرمات الكبرى .ومن ذلك الواقع السفلي أعاد جماعة من المفكرين النظر في القيم الإنسانية كلها ، أكانت فنية أو أخلاقية ، وربما تنكروا لها ، واعتبروا أن وجودها لا يعدو الوهم والاعتبار والخرافة . .[٣] .

اجتمعت طائفة من الأدباء والفنانين اليائسين المتعبين من ويلات الحرب عام (١٩١٧)في «خمّارة فولتير» في فرنسا ، وقيل في زوريخ ، وكان من أبرزهم الشاعر«ترستان تزارا» (١٨٩٦- ١٩٦٣م) وقد جمع بين هؤلاء «خوف التلاشي والفناء ، فتنادوا فيما بينهم

(١)انظر مناهج النقد الأدبي لديفيد ديتش : ص٥٢٨ .
(٢)انظر كتاب : «أزمة مفهوم الأدب في فرنسا في القرن العشرين» ، لإلبير ليونار (ترجمة زياد عودة) ص٣٩ .
(٣)الرمزية والسريالية ، لإيليا الحاوي : ص٢١١ .

بالسخرية من القوى التي كانت تدفع بالعالم إلى الخراب . .[1]» ودعوا إلى مذهب جديد ، وأطلقوا عليه كلمة لا معنى لها ، وهي كلمة (دادا) .

وقد كان اختيار هذه الكلمة الفارغة من المعنى هو بمثابة رفض كل ما هو عقلاني ، ومن قبيل التعبير عن العبثية والرفض للعالم الموروث المحكوم بالقيم والمبادئ والأخلاق .

وقد قامت «الدادية» على اتجاه اللاشعور ، وخطت شوطاً بعيداً جداً في هذا الاتجاه ، وعُدّت ممهدة لظهور المدرسة السريالية أو فرعاً منها ؛ حتى إن بعض الدارسين لا يميّزهما ، ويعدهما مذهباً واحداً .

أبرز الآراء الفكرية والفنية للدادية

نادت الدادية التي لم تعش إلا سنوات معدودة (١٩١٧- ١٩١٩) بمجموعة من الآراء الفكرية والأدبية ، وهي تمثل جميعها روح التمرد والثورة على كل شيء ، وتعد نموذجاً للشذوذ والانحراف ومجافاة العرف ، ومن أبرز آرائهم :

١ ـ أعلنت الدادية الثورة على الأديان والأعراف والتقاليد والتراث ، بل على كلّ شيء تقريباً ، ودعت إلى هدم ذلك كله وسحقه ، تحقيقاً ـ في زعمهم ـ لحرية الإنسان التي تستلبها هذه الأشياء .

ومن هنا كانت صفة العدمية والهدم تؤلف بين جميع الداديين في كلّ مكان ، على اختلاف بلدانهم واتجاهاتهم .

يقول الشاعر «ترستان تزارا» أبرز ممثلي هذا الاتجاه داعياً إلى هذا الهدم الذي لا ينجو منه شيء .

«الوطن ، والعائلة ، والأخلاق ، والفن ، والدين ، والحريّة ، والأخوة ، كانت تعتبر قديماً جواباً للحاجات الإنسانية ، وفي يومنا لم يبق منها إلا هيكل عظمي من الاتفاقات والاعتبارات ، هنالك عمل تهديمي كبير ينبغي أن يتم ، لا بدّ من الكنس والتنظيف . .[2]» .

---

(١) فن الشعر ، لإحسان عباس : ص٨٦ .

(٢) انظر كتاب «الرمزية والسريالية» لإيليا الحاوي : ص٢١٣ .

٢ـ رفضت الدادية ـ كما عرفت ـ كل سمة من سمات العقل أو المنطق ، ودعت إلى عالم لا يسوده منطق ، ولا عرف ، ولا قانون ، لأن هذه كلها مما يسترّق الإنسان ويستعبده .

واللاعقليّ عندهم هو الذي يعيد الإنسان إلى حقيقته ، لأَنَّ الإنسان وجد ليحيا الوجود لا ليقيّمه ، وفقاً للمبادئ والقيم الزائفة ، وهذا الرفض لكل سمة من سمات العقل أو المنطق أو العرف هو في سبيل العودة إلى البداوة الفوضوية الكلية . . [١] .

٣ـ تبنّى الداديون في الفن ، وفي الفكر ، وفي العيش كذلك ، كلّ سلوك شاذ ومنحرف ، ودعوا إلى كل ما هو نابٍ خارج عن الذوق والأديان . إن الدادي «هو الذي يحيا الإلحاد الاجتماعي والفكري والأخلاقي ، وليس الذي يكتب فيها ويؤلف حولها . ومن هنا إن الداديين جميعاً كانوا يسعون إلى التصرف الشاذ والنابي والملحد ، إلى إثارة الشكوك ، وإزعاج الآخرين واحتقارهم ، والدليل على غبائهم وبهيميتهم . . [٢]» .

وهكذا لا تبدو الدادية اتجاهاً في الأدب ، أو الفن ، أو الفكر فحسب ، ولكنها كذلك سلوك في الحياة ، ومنهج في العيش .

٤ـ الغموض والفوضى :وإزالة الحواجز بين الأنواع الأدبية ، وإشاعة التشويش واللانظام في الآداب والفنون .

وقد عبّر عن هذه العبثية الشاعر الفرنسي فيليب سوبو بقوله : « ضع الألفاظ في قبعة ، ثم أخرج منها ما يعنّ لك ، فبهذا يصنع الشعر الدادي . . [٣]» .

ومن مظاهر هذا التحطيم وهذه السخرية «بالانتظام والترابط أن هؤلاء القوم كانوا عندما يجتمعون يجمعون قصاصات من الصحف ويلصقونها بعضاً ببعض كيفما اتفق ، ويجدون في ذلك المستحيل المعنوي فعليَّة في الإبداع ، لأن الإنسان

---

(١) السابق : ص٢١٤ .

(٢) السابق .

(٣) الأدب وفنونه ،لعز الدين إسماعيل : ص٥٨ .

صدر فيه عن الاتفاق والصدفة والآلية . إنها تجسد حالة اللامعنى الكلي ، واللامنطق واللاتواصل ، التي يريدون أن يعيدوا الوجود إليها . .[1]» .

٥ـ تبنّى الداديون كل ما هو قذر سخيف وشاذ ، حتى أعلنوا ـ كما عرفت ـ الثورة على كل شيء ، دون أن تكون لهم غاية إيجابية إلا «عرض ما هو سخيف»إن الفن ـ في زعمهم ـ نوع من القماءة القذرة ، والحياة كذلك . .[2] .

٦ـ فك إسار الكلمة من عبودية المعنى ، وتخليصها من الارتباط به ، بحيث لا يبقى لها سوى قيمتها كموضوع شعري .

وتأكيداً لنزعتهم العدمية هذه اختار الداديون ـ كما عرفت ـ كلمة (دادا) وهي كلمة خالية من المعنى[3] .

وهكذا ولدت من رحم اللاشعور هذه المدرسة الهجينة الشاذة التي كان من حسن حظ الفكر والفن أنها لم تعمر طويلاً ، ولكن أحد الأدباء الذين كانوا من جماعة «تزارا»وهو الشاعر الفرنسي «أندريه بريتون» خرج على هذه المدرسة ، واختصم مع جماعتها بسبب ما أسرفوا فيه من الفوضى والشذوذ ، وغيّر اسم «الدادية» إلى «السريالية» التي هي الأخرى مدرسة هجينة على الرغم مما ادعت أنها ستقوم به من تنظيم وتشذيب في آراء الداديين .

---

(١)الرمزية والسريالية : ص٢١٦ .

(٢) فن الشعر : ص٨٧ .

(٣) المعجم الأدبي ، لجبور عبد النور : ص ١٠٧ .

واضح عُوار الدادية ، وهي لا تستحق أن تسمى مذهباً أو مدرسة أدبية أو فكرية ، إذ هي نزعة هجينة شاذة ، تمثل رجعة في الفكر ، وانتكاسة في الذوق .

ثم هي بعد ذلك ـ كما رأيتَ ـ دعوة إلى الهدم والتبديد ، هدم كل شيء ، بما في ذلك الأديان والأخلاق والآداب والفنون .

لقد رأيت «ترستان تزارا» الذي يعد مؤسس هذه النزعة الشاذة وهو يجعل من كل ما تعارف عليه البشر خلال تاريخهم الطويل ، من القيم والمبادئ والأعراف والوطن والدين تعبيرا قديماً عن حاجات بادت واندثرت ، و في يومنا هذا لم يبق من هذه جميعاً إلا هيكل عظمي من الاتفاقات والاعتبارات ، ومن ثم وجب ـ بتعبيره ـ الكنس والتنظيف ، ليعود الإنسان إلى بكارته الأولى .

وهو يشير كذلك ـ معبراً عن هذا الهدم الذي يريده ـ بقوله : «أحطِّمُ أدراج الدماغ والنظام الاجتماعي ، أُوْهِن العزائم في كل مكان ، وأقذف بيد السماء إلى الجحيم ، وبعينيْ الجحيم إلى السماء ،وأعيد الدولاب الخصب في سيرك عالمي إلى القوى الحقيقية ، و إلى نزوة كل امرئ .. [1]» .

الداديون ليسوا ثوّاراً

والداديون ـ بهذا المقياس ـ ليسوا ثواراً كما يدعي بعض الدارسين ، لأن الثورة قد تكون عملاً إيجابياً ، إذ قد تحمل بذوراً صالحة ، ودعوة إلى التغيير المثمر الفعّال .

ولكن دعوة الداديين لم تكن كذلك ، إذ لم يكن لدى هؤلاء القوم أي مشروع حضاري ، أو فكري ، أو أدبي ، يحملونه إلى العالم ، ولم يكن سعيهم إلى هذا الهدم الأحمق لإقامة نظام فريد بديل عما هدموه ، بل كان هدفاً لذات الهدم ، وعبثاً لذات العبث .

(١)المعجم الأدبي ، لجبور عبد النور : ص ١٠٨ .

لقد اندفعت الدادية بشكل أرعن لمهاجمة جميع منابع الفكر واللغة وتحطيمها ، وكأن مبدأهم « لنحطمْ كلّ شيء ولنرَ ـ من بعدُ ـ ما يبقى في أيدينا ، فما سلم من هذه المجزرة هو الواقع الحقيقي الذي لا يرقى إليه شك ، ولا يقوى على تشويهه أو إفساده أي تقليد أو منطق . .[1] » .

الداديون قوم غير أسوياء

ولا يستغرب المرء مثل هذا الاتجاه الشاذ المنحرف حين يتتبع سيرة نفر من هؤلاء القوم ، فيعلم أنهم لم يكونوا أصلاً ناساً أصحاء أو أسوياء ، أو أصحاب فطر وأذواق عادية ، بل كانوا مرضى ، مصابين بعقد نفسية مختلفة .

ممن أسسوا لهذه الدعوة واحد ا سمه «أرتير كرافان» وكان مختل العقل ، سليط اللسان ، وكان ملاكماً قوياً ، وكان إذا «دعي إلى محاضرة تقدمته الدعاية الكبرى ، فإذا ولج القاعة فإنه يطلق عبارات نارية ، ويرقص ، ويتحدّى بالملاكمة ، ويشتم الحاضرين ويولّي . .[2]» .

ومن دعاة هذا الاتجاه الشاذ كذلك مريض آخر هو «جاك فاشيه» تعرف عليه «بريتون» الذي سيخرج على الدادية ويؤسس «السريالية» في إحدى المصحات العقلية ، وكان «فاشيه» هذا يرمز إلى اعتزاله للمجتمع من خلال ثيابه التي لا تمت بصلة إليه ، ويجد أن كل ما يطالعنا ومانراه هو خاطئ وضالّ ، وليس من فرق بين حقيقة وأخرى إلا كالفرق بين «الكاتو» والكرز بعد الأكل ، إذ لا حقيقة في الوجود قط . .

وسرعان ما استولت على فاشيه هذا الانهيارات الداخلية ، وعمد إلى الانتحار[3] .

وسرت هذه اللُّوثة إلى صحبه ، فدرجوا على الانتحار حلاً لمشكلة الحياة ، وكان يكتب أحدهم حين ينتحر : «إني قرِف[4]» .

---

(١) المعجم الأدبي : ص١٠٨ .

(٢) الرمزية والسريالية : ص٢١٥ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السابق نفسه .

obeikandl.com

ومن الواضح أن هذه أفكار وتصرفات لا تتنافى مع الإسلام وحده ، دين العقل والمنطق ، والنظافة والاستقامة ، ولكنها تتنافى مع أية فطرة إنسانية ، بل تتنافى مع أبسط قواعد الذوق السليم .

الاعتداد باللاشعور

وإن جميع ما أتى به فرويد وتلامذته من الكلام على النفس البشرية ومناطقها الثلاثة ، ودور اللاشعور ، وتفسيره لعملية الإبداع الفني ، وما شاكل ذلك من الأفكار ، لا يعدو الافتراضات ، وهي لا ترقى ـ بأية حال ـ إلى مستوى الحقائق الثابتة ، وليس هنالك أي دليل علمي مقنع يدل على صحتها .

والفكر ـ في التصور الإسلامي ـ هو وليد الشعور واليقظة والعقل الواعي المتزن ، وليس وليد اللاشعور وغيبة الوعي كما تقول الدادية والسريالية التي ستأتي بعدها ممن تأثروا بآراء فرويد وغيره من علماء النفس .

إن الكلمة ـ في التصور الإسلامي ـ أمانة ومسؤولية ، وهي في موطن الحساب ، تكبّ صاحبها في نار جهنم ، أو ترفعه في الجنة درجات كما لا يخفى على أي مسلم عاقل ، ولا يمكن أن يحاسب الإنسان على ما صدر منه في حالة جنون ، أو غيبوبة عن الوعي ، أو ما شاكل ذلك .

ولا يُقْنع أحداً ما يقوله فرويد وغيره من علماء النفس من أن الفنان إنسان غير سوي ، وكلامه تفريغ للاشعور الذي تحركه أم الغرائز عنده وهي الغريزة الجنسية ، بما تشتمل عليه من عقد ، كعقدة أوديب ، وعقدة إلكترا ، وعقدة الخصاء ، والعقدة النرجسية ، وغير ذلك ، مما لابد أن يكون الأديب مصاباً به ، ثم ينعكس في أدبه ، وغير ذلك من الكلام الذي لا يؤيده عقل ولا علم .

إن من الأدباء قوماً أسوياء أصحاء ، وقد شبه النبيّ ـ ﷺ ـ بعض أقوالهم ـ بالجهاد ، فقال عليه السلام ـ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»وقال ـ عليه السلام

ـ عن بعض الشعر :«إن من الشعر لحكمة[1]» فهل يصح بعد ذلك أن نعدّ الأدباء جميعاً مصابين بالعُصاب ، مختلي الاتزان ، وأن نعدّ الفن كله نتاجاً جانبياً لهذا المرض؟[2] .

وإن مما يؤسف له حقاً ، ويشعر بالخلل الفكري الذي يصيب العقل الإنساني عندما ينحرف عن منهج الله ، وعن شرعه الذي ارتضاه للناس ، أن هذه الدادية ـ على ما فيها من العوار والشذوذ والانحراف ـ الذي لا يخالف الإسلام فحسب ، بل يخالف كل فطرة إنسانية سليمة ـ قد وجدت من بني جلدتنا من ينبهر بها ، ويصفق لإنجازاتها ، بل يقلدها ، فيدعو إلى أدب غير منضبط ولا متزن لغة وفكراً وشعوراً ، وأن يحتقر العقل والمنطق والوضوح ، ويعد هذا كله أثارة فكر رجعي بائد ،كما سنبين ـ إن شاء الله تعالى ـ عند كلامنا على «السريالية» وريثة الدادية .

ولقد تركت الدادية ـ على فسادها الظاهر ـ تأثيراً في الشعر والأدب ، إذ عززت الاتجاه إلى عالم اللاشعور في الإبداع ، وحررت الشعر من الأوزان والقوافي ، وفتحت الباب على مصراعيه أمام الغموض والفوضى ، واحتقار العقل الواعي ، والمنطق والشعور ،وجرّأت على السخرية من العقائد والأديان ، والأعراف والتقاليد ، ونزعت اليقين والثبات عن أي شيء مما توارثه البشر .

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما .

(٢) انظر مناهج النقد الأدبي ،لديفيد ديتش : ص٥٢٧ .